پژوهش‌نامهٔ انتقادی متون و برنامه‌های علوم انسانی، پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
ماهنامهٔ علمی ـ پژوهشی، سال هجدهم، شمارهٔ یازدهم، بهمن ۱۳۹۷، ۱۸۳-۲۰۲

العرب والتنظير للأدب المقارن

دراسة نقدية و تحليلية لمحاولة أحمد عبدالعزيز نموذجا

هادی نظری منظم*

الملخص

ليس ثمة مفهوم واحد محدّد للأدب المقارن، ذلک أن الأدب المقارن عالج منذ نشأته العلمية حقولا مختلفة من الدراسة و مجموعة من القضايا و المشكلات ليست على درجة كبيرة من التجانس أو التقارب. و نتيجة لهذا التطور الهائل فی مفاهيمه و هذا التوسع الشديد فی مجالاته البحثية يمكن القول إن المقارنين اليوم لم يحتفظوا من المقارنة إلا بروح الانفتاح على الآداب والثقافات المختلفة. و الحديث عن مستقبل الأدب المقارن العربی سابق لأوانه، رغم أن عدد المقارنين العرب يتزايد يوميا و تتعدد اتجاهاتهم و يتحمسون للبحث عن هوية خاصة للأدب العربی المقارن لا تعانی من التبعية للغرب باتجاهاته و مدارسه. وهذا المقال باعتماد المنهج الوصفی ـ التحليلی و من خلال الموازنة يحاول أن يلقی ضوءاً على كتاب الدكتور أحمد عبدالعزيز المعنون: *نحو نظرية جديدة للأدب المقارن* فيذكر إيجابياته و يتطرق إلى ما يؤخذ عليه من الجانبين الشكلی و المضمونی. والكتاب يقع فی مجلدين؛ دعا فيه المؤلف إلى أدب مقارن جديد، وكشف عن جرأة نظرية كبيرة، لكن النتائج تدل على أن محاولته هذه تتمثل فی تقديم نهج وسط بين المدرسة الفرنسية التقليدية والمدرسة الأمريكية المتحررة، مع ميل واضح إلى الأولى فی التطبيقات. فلا نبالغ إذا قلنا إن صدى كتاب الدكتور عبدالعزيز معدوم فی الأدب المقارن العالمی، و شبه معدوم فی الدرس المقارن العربی.

الكلمات المفتاحية: الأدب المقارن، المقارنة العربية، أحمد عبدالعزيز، *نحو نظرية جديدة لـلأدب المقارن*.

---

* أستاذ مساعد فی فرع اللغة العربية وآدابها بجامعة تربيت مدرس، hadi.nazari@modares.ac.ir
تاريخ دريافت: ۱۳۹۷/۶/۲۴، تاريخ پذيرش: ۱۳۹۷/۱۰/۱

۱. مقدمة

فلسفة الأدب المقارن تقوم على دراسة الأدب خارج حدوده اللغوية و الثقافية والمعرفية وهو بمختلف مناهجه ومدارسه يتبوأ فی العصر الراهن عصر ثورة المعلومات منزلة متميزة. والمتابع للنشأة التنظيرية المنهجية للأدب المقارن، على اختلاف مدارسه من فرنسية وأمريكية، يلاحظ بأنها محاولات تنظيرية كانت تعانی منذ بدايتها من إشكالية فی تحديد المنطق الخاص للأدب المقارن و تحديد المنطقة النوعية له و تحديد الوظيفة النوعية لنظرية المقارنة (انظر: الخطيب، ۱۹۹۹: ۱۹-۲۰)؛ ولا نريد فی هذا المجال الضيق أن نتطرق لتعريفات المصطلح المختلفة، وأسباب الاختلاف فيه، وإن شكلت هذه الاختلافات دوراً إيجابياً وفاعلاً فی إلغاء الثابت من المناهج، و أسهمت إسهاما بارزا فی تحقيق تقدم ملحوظ للتنظير فی حقل الأدب المقارن. فالاختلاف ينبغی الترحيب به حينما يشكل إضافة نوعية إبداعية على صعيد المنهج، وإن التقدم المعرفی فی مضمار العلوم الإنسانية لا يتم إلا عبر النقد والنقاش الموضوعيين الصريحين اللذين لا يُلغی فيهما الاختلاف.

۱.۱ منهج البحث

هذا المقال باعتماد المنهج الوصفی ـ التحليلی و من خلال المقارنة يحاول أن يلقی الضوء علی كتاب الدكتور أحمد عبدالعزيز المعنون: *نحو نظرية جديدة للأدب المقارن* و أن يتناول ما فيه من إيجابيات و ما يؤخذ عليه على الصعيدين الشكلی و المضمونی.

۲.۱ أسئلة البحث

۱. هل بلغ الأدب العربی المقارن مرحلة الرشد و القدرة على التنظير و منافسة الغرب فی هذا المجال؟

۲. ما مدى نجاح محاولة الدكتور عبدالعزيز على صعيد التنظير والتطبيق فی حقل الأدب المقارن؟

۳.۱ خلفية البحث

ذهب الدكتور حسام الخطيب إلى ريادة روحی الخالدی فی الأدب التطبيقی المقارن فی العالم العربی بقوله: «ويمكن اعتبار روحی الخالدی، سواء من حيث السبق الزمنی أم من حيث السبق العلمی رائدَ البحث العربی المقارن التطبيقی، بما تنطوی عليه كلمة «ريادة» من تسامح فی ناحيتی

المنهج والدقة العلمية» (الخطيب، ١٩٩٩: ١٧٠). ولا نشير إلى جهود الآخرين من أمثال: سليمان البستانى وعبد الوهاب عزام ونجيب العقيقى وعبد الرزاق حميدة وإبراهيم سلامة و... لأن ما يهمنا هنا هو إثبات الجانب التنظيرى العربى للأدب المقارن، وهو إثبات له قيمته و أهميته البالغة.

و تعتبر مصر مهد الأدب العربى المقارن، و جامعاتها هى التى صدّرت الأدب المقارن إلى الجامعات العربية بالتدريج و زوّدتها بالأساتذة و بالكتب النظرية و التطبيقية المقررة. ويقترن اسم الدكتور محمد غنيمى هلال اقترانا لازما بمصطلح الأدب المقارن فى الوطن العربى؛ فهو الرائد المنهجى الحقيقى الأول الذى مارس الدرس المقارن وفقاً لمعايير وأسس علمية منهجية، على الرغم من ظهور كتابين مؤلفين حول الأدب المقارن بدار العلوم فى أواخر الأربعينيات لكل من عبد الرازق حميدة وإبراهيم سلامة وظهور كتاب مترجم عن الفرنسية لفان تيجم المنظّر الأول للأدب المقارن فى فرنسا؛ فكانت أطروحته تأثير النثر العربى على النثر الفارسى فى القرنين الخامس والسادس الهجرى، وأطروحته للحصول على شهادة الدكتوراة من جامعة السربون (هيباتيا فى الأدبين الفرنسى والانجليزى من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين)؛ كما كانت جهوده الدائبة بكتابه الأول عن الأدب المقارن، فالرومانتيكية، فالحياة العاطفية بين العذرية والصوفية، فالنقد الأدبى الحديث، فالنماذج الإنسانية فى الدراسات الأدبية المقارنة... . قد كانت هذه المؤلفات العلمية الأكاديمية جهداً مخلصا متصلا لأجل التعريف بالدراسات الأدبية المقارنة والإسهام فيها وتوضيح رسالتها الخطيرة الشأن فيما يخص الوعى القومى والإنسانى، لكن الدكتور هلال ظل ملتزما بالمفهوم الفرنسى التقليدى للأدب المقارن و لم يحد عنه قيد أنملة إلى أن توفاه الله.

ثم برز عدد آخر من الباحثين و المقارنين العرب حاولوا التنظير للأدب العربى المقارن، و من أوائل هؤلاء، الدكتور طه ندا (المتوفى ١٩٩٩م)، الذى دعا فى كتابه *الأدب المقارن* (بيروت، ط٢، ١٩٧٥) إلى الأدب الإسلامى المقارن، و كان يتمنى أن«يتم التواصل بين الشعوب المسلمة بالوصل بين لغاتها وآدابها» (نظرى منظم، ١٣٨٨: ۶۴) و يرى البعض أن طه ندا «يُرسى ـ ولأول مرة ـ مفهوم الأدب الإسلامى المقارن على نحو يتميز بالدقة والاستيعاب والشمولية» (عنانى ورمضان، ١٩٨٨: ۴۶) و قد لقيت فكرة الأدب الإسلامى المقارن قبولا لدى مقارنين كبار من أمثال الدكتور طاهر أحمد مكى؛ فقد خصص له كتابا ضخما بعنوان: *مقدمة فى الأدب الإسلامى المقارن* (ط ١، ١٩٩۴، ۴۶۶ ص) (للتفصيل بهذا الشأن، راجع: پروينى، ١٣٨٩: ص ۶١ وما بعدها).

وثمة مقارنون آخرون من أمثال الدكتور حسام الخطيب الذى يمثل الأدب العربى المقارن خير تمثيل من خلال إسهاماته فى مؤتمرات الرابطة الدولية للأدب المقارن والملتقيات العالمية، و من خلال تأليفاته وعقود من مزاولة تدريس الأدب المقارن. و من أشهر نظرياته يمكن الإشارة إلى

إسهامه القيم فی إحصاء «مقومات العالمية الأدبية» ودعوته إلى تأصيل الأدب المقارن و توطينه و... . و هناک أيضا الدكتور عزالدين المناصرة و هو من أكبر المقارنين والنقاد العرب و له إسهاماته القيمة فی مجال النقد المقارن. و ثمة مقارنون آخرون قدموا تأليفات تسدّ فراغا فی المكتبة العربية، و لكن رغم هذه الجهود القيمة كلها لا نجد من نادی لحد الآن بتقديم نظرية جديدة فی الأدب المقارن العالمی. ويبدو أن معظم المحاولات العربية فی هذا المضمار قُدّر لها عدم مفارقتها لنقطة البدء فی إطارها ومهادها التنظيری؛ كما أنها تميل إلى التخلی عن أية ادعاءات علمية أو بحثية فی الأغلب الأعم؛ فالنظريات مترجَمة غالبا عن الفرنسية أو الأمريكية و الألمانية والروسية و...؛ فلا غرو إذا ما لاحظنا عجزاً شبه تام عن تكوين نظرية ذات طابع تكاملی أو مستقل فی الأدب العربی المقارن. ولسنا نقصد أن نستبق الحكم فيما ينبغی إصدار الحكم عليه فی هذا البحث، ولكن نری أن التيقن من هذه الحقيقة ليس بالأمر الصعب؛ فمئات الكتب و الدراسات الموجودة فی العالم العربی تبرهن على هذا المدَّعی.

يقول الدكتور حسام الخطيب عن حالة النقد و المساءلة فی العالم العربی: «ليس فی الوسط الثقافی العربی أیُّ حدّ ـ ولو أدنی ـ من المحاسبة أو التقييم أو التسآل» (الخطيب، ۱۹۹۹: مقدمة الطبعة الأولی، ۱۴) و فی مثل هذه الأجواء و الظروف تفاجئنا محاولة الكتور عبدالعزيز، الذی يدّعی بأنه يأتی بجديد فی مجال النظرية و التطبيق و يحاول أن يكون رائد هذا الأمر فی الأدب العربی المقارن.

وأما المحاولة الوحيدة لنقد كتاب الدكتور عبدالعزيز فتتمثل فی المقالة التی كتبها موسی إبراهيم أبو دقة بعنوان: «قراءة تحليلية فی مرجعيات التنظير العربی للأدب المقارن» (مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد السادس عشر، العدد الأول، صص ۹۵-۱۲۴). و المقالة مفيدة و قد أحلنا إليها فی هذا البحث، غير أن الكاتب لم يتناول فيها بالدرس والنقد إلا الفصل الأول لكتاب الدكتور عبدالعزيز، و جانبا يسيرا أيضا من محاولة الدكتور عزالدين المناصرة.

و لهذا كله يحاول كاتب هذه السطور أن يتناول الكتاب المذكور أعلاه بالنقد و التحليل، و يدرس مدی صلاحيته لأن يُتخذ كتابا جامعيا للتدريس فی مقرر الأدب المقارن فی الجامعات الإيرانية.

۲. التعريف بكتاب *نحو نظرية جديدة للأدب المقارن*

هذا الكتاب ظهر عام ۲۰۰۲م؛ أصدرته مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة فی مجلدين: الأول منهما ضخم(۳۷۴ص)، خصصه للبحث عن النظرية كما هو مكتوب على الغلاف، و أهداه إلى زوجته

فاطمة، و ضمّنه توطئةً فی سبع صفحات تناول فیها قضایا کأزمة الأدب المقارن و أبعادها و دروب الحل، تلیها المقالة الافتتاحیة للنشرة السنویة للرابطة العالمیة للأدب المقارن، المنشورة فی المجلد العشرین (سنة ۲۰۰۱) و المقالة بقلم رئیس الرابطة کوجی کاواموتو، و تقع فی خمس صفحات. ثم یعرض المؤلف فی الفصول التالیة لقضایا نظریة و أخری تطبیقیة و کلها بحوث نشرها من قبل فی بعض المجلات العربیة أو الکتب التذکاریة. فالفصل الأول یحمل عنوان «الأنواع: شعریة مقارنة لجامع النص» نشره سنة ۲۰۰۲ فی مجلة الجمعیة المصریة للأدب المقارن «مقارنات» (العدد الأول) ویقع فی ۴۵ صفحة (صص ۲۵– ۶۹) أما الفصل الثانی فعنوانه: علم الأشکال الأدبیة (نحو علم مقارن للشکل) (صص ۷۳– ۱۲۵) و نشره عام ۱۹۹۶ فی الجزء الثانی للکتاب التذکاری المعنون «إلی یوسف خلیف، من زملائه و طلابه» (مرکز اللغة العربیة، جامعة القاهرة، دار غریب) أما الفصل الثالث فعنوانه التلقی: نحو نظریة للتلقی فی أدب مقارن جدید (صص ۱۲۹– ۱۳۵) و هو عنوان بحث ألقاه فی مؤتمر «مستقبل الأدب المقارن فی ظل العولمة» (جامعة المنیا، مارس ۲۰۰۱) و الفصل الرابع خصصه للترجمة بین اللسانیات و السیمیولوجیا (صص ۱۳۹–۱۵۳) و قد ألقی هذا البحث فی مؤتمر الترجمة فی مصر (نومبر ۲۰۰۰) والفصل الخامس هو ظاهراتیة الموقف المقارن (صص ۱۵۹– ۳۴۳) و هذا الفصل الطویل نشر فی مجلة کلیة الآداب (جامعة القاهرة، المجلد ۵۶، یولیو ۱۹۹۶) و فیه یُعنَی بدراستین تطبیقیتین، هما الانتظار بین أربع مسرحیات (أنطونیو جالا، لورکا، صمویل بیکیت، صلاح عبدالصبور)، و بنیة «القهر» بین لورکا و صلاح عبدالصبور.

ثم زود الکتاب بخاتمة (صص ۳۴۷– ۳۶۵)، ثم الفهرس التحلیلی (صص ۳۶۶–۳۷۲) و أخیرا بعض کتب المؤلف الصادرة عن مکتبة الأنجلو المصریة و بعض دواوینه الشعریة أو بعض أعماله قید الطبع.

أما المجلد الثانی فهو فی استراتیجیات المقارنة و یقع فی ۲۷۸ صفحة، جمع فیه بین النظر والتطبیق مع غلبة الجانب الثانی. خصص الفصل الأول لبذور المقارنة فی فکر طه حسین و منهجه (مقارناته غیر القصدیة) و الفصل الثانی لـ«تحولات النوع الأدبی: السید القمبیطور من التاریخ إلی الأسطورة» و«تحولات المنهج بین العلم و الفن: شعریة البحث عند الدکتور یوسف خلیف». أما الفصل الثالث فهو فی قراءة الشکل؛ یتناول فیه أشکالا أندلسیة فی الشعر الإسبانی، وأخری مضمونیة فی الفضاء الأندلسی. والفصل الرابع یُعنی بالموضوعات العربیة فی الشعر الإسبانی المعاصر؛ أما الفصل الخامس فهو یتناول الأندلس فی عالم جالا«من التلیفزیون إلی الروایة»، و کذلک «الحامّة: التاریخ والنص السینمائی». أما الفصل الأخیر فهو فی علم الصورة: «أسطوریة لورکا عند العرب»، و «صورة المنیا عند رحالة إسبانی معاصر».

۳. کتاب *نحو نظریة جدیدة للأدب المقارن* فی مرایا النقد و التحلیل

۱.۳ الجانب الشکلی فی الکتاب

لدی تقویم الکتاب من الناحیة الشکلیة نشیر أولا إلی ظاهرة تکاد تکون متفشیة فی کتابات العرب و نعنی بها عدم تحدید الهدف العام من تألیف الکتاب؛ إذ إن عملیة تحدید الأهداف هی حجر الأساس الذی تبنی علیه الخطوات اللاحقة، و کلما کانت الأهداف محددة و واضحة تمکن المؤلف من تحقیقها بسهولة و یسر. و هناک أیضا عدم تحدیده للفئة المستهدفة. صحیح أنه قد ادعی أن مشروعه هذا «یطمح إلی خلخلة کل الأفکار القدیمة فی الأدب المقارن و التی أوصلته إلی هذا الدرب المغلق، درب الأزمة التی یشار إلیها فی کل حین، علی اختلاف مشاربها» (عبدالعزیز، ۲۰۰۲: ج ۱، ۸) لکن هذا الکلام فیه من الغلو ما لا یخفی.

و نشیر إلی بعض الأخطاء المطبعیة التی تتبعثر هنا وهناک. ویبدو أن کل محاولات الهروب من مثل هذه الأخطاء محکوم علیها بالفشل. من هذه الأخطاء علی سبیل المثال ـ لا الحصر ـ: بیشو (۱۰/۱، الهامش ۱) والصحیح: بیشوا؛ هوارس (۲۹/۱) والصحیح: هوراس؛ رسو (۱۴۰/۱، الهامش ۲) والصحیح: روسو (انظر أیضا: الهوامش من ۱۴۱/۱، ۱۴۹/۱ و...)؛ کا (۱۴۸/۱) والصحیح: کل؛ الوحد، و المؤشرت (۱۵۳/۱) و الصحیح: الواحد، و المؤشرات و... .

والمشکلة الأخری فی هذا القسم تتمثل فی رغبة المؤلف فی تضخیم المجلد الأول للکتاب! فهو علی سبیل المثال لم یترک شاردة ولا واردة فی الفصلین الأول والثانی، وحشَا واستطرد، و قد أتی بعناوین فرعیة کثیرة لا تعطی فی الأعم الأغلب انطباعا للقارئ غیر المتخصص، بل تربکه وتنفّره. وقد نتج عن هذا افتقار المجلد الأول إلی التوازن والتناسق فی بعض فصوله: فبعض الفصول لاتتجاوز سبع صفحات(الفصل الثالث) و بعضها یقع فی ۱۴ صفحة (الفصل الرابع)، بینما یصل البعض الآخر إلی ۱۰۰ صفحة (الفصل الخامس).

وهناک أیضا عدم اتباع المؤلف لنظام واحد و منسق فی الإحالات؛ فهو یکتب المراجع والمصادر فی الهامش، ولکنه یخالف منهجه فی الندور ویأتی بالمراجع ضمن النص. (انظر مثلا: ۱/ ۱۰، ۱۴۳ و...).

ورغم توفر بعض المصادر العربیة الشهیرة فی المکتبات العامة والخاصة، نلاحظ أن المؤلف یعتمد أحیانا بعض المراجع الجانبیة ولا یکلف نفسه مراجعة المصدر الأم مباشرة. فهو مثلا یذکر مقولة الجاحظ الشهیرة عن الترجمة و شروط المترجم نقلا عن محمد عبدالغنی حسن (المصدر نفسه: ۱۴۰/۱)، رغم أن کتاب *الحیوان* للجاحظ فی متناول أیدی الدارسین.

ويوجد فى المجلد الأول للكتاب ما هو أخطر من ذلک؛ إذ إن المؤلف قرّر فى بعض فصوله ـ الفصل الثالث ـ التخلى تماماً عن الإحالة إلى المصادر والمراجع والتدقيق فى المادة العلمية التى اعتمدها. وها نحن نكرّر مع الدكتور الخطيب خشيتنا من «أن تكون المؤسسة الأكاديمية العربية (ذات التخصص الأدبى على الأقل) تفضّل الرجوع إلى الطرق الجاحظية، بعد كل تلک الأشواط التى قطعها البحث الأدبى العربى» (الخطيب، ۱۹۹۹: ۲۹۲).

ويؤخذ على المؤلف قلة اهتمامه بالمصادر والمراجع النظرية الشهيرة للأدب المقارن؛ فلا نكاد نجد إحالة إلى عمالقة الأدب المقارن فى الغرب من أمثال أولريخ فايشتاين وهنرى ريماک و استيون توتوسى و إيف شيفريل و إدوارد سعيد و...؛ كما يؤخذ عليه تغافله التام أو شبه التام عن كبار المقارنين العرب من أمثال محمد غنيمى هلال وحسام الخطيب و عزالدين المناصرة والطاهر أحمد مكى وغيرهم و عدم إشارته إلى أسبقيتهم و إسهامهم فى التنظير للأدب العربى المقارن، لا من قريب ولا من بعيد. ومثل هذا التجاهل أو التغافل لا يمكن تبريره؛ فما أحوجنا أن نبتعد عن مثل هذا المنحى، الذى لايتفق و الموضوعية العلمية والخلق العلمى الرفيع.

ويؤخذ على المؤلف أيضا إهماله للترجمة الإنكليزية لبعض المصطلحات النقدية و التطبيقية فى بعض الأحيان، كما يهمل فى كثير من الأحيان ما يعادل الأسماء الخاصة (أسماء العلم) فى اللغات الغربية.

و الكتاب يفتقر إلى قائمة بالمصطلحات و كشّاف للأعلام، ومصادره ـ عربيةً كانت أو أجنبيةً ـ فقيرة، لاسيما تلک التى تُتابع نظريات المقارنة متابعةً تخصصيةً.

۲.۳ عرض و تحليل لمحتوى الكتاب

يمكن القول إن النظرية نسق من المبادئ و القوانين ينظم معرفتنا بمجالات خاصة، و يتضمن هذا النسق بناء منطقيا، له مكوناته و يخضع لنظام فرضى استنباطى يسمح بالانتقال من عنصر إلى آخر وفق تراتب صارم. و«تفترض مقتضيات الشروع فى تأسيس وتأصيل أية نظرية جديدة أن وعياً مختلفاً بدأ يتشكل، وفق رؤية واضحة المعالم، متبلورة وصلبة وراسخة، لا لبس فيها، بحيث تختلف عما هو موجود، مما يجعل من إقرارها تميزاً وتفرداً وتجاوزاً يفى للأسس البنائية والإبداعية مقتضياتها التى تحقق لهذه النظرية عمقها الواعى بما تريد تأصيله وتحقيقه. فى الوقت نفسه، لا يتم بناء نظرية جديدة، وفقًا لما يتهيأ أو يتوافر لنا من أقوال الآخرين، ولا من فروض خاصة بها، دون أن تكون للنظرية الجديدة مجساتها التأسيسية، و خصوصيتها وشروطها وعناصرها التى تنسجم مع رؤاها» (ابو دقة، ۲۰۰۶: ۱۰۰). و من المؤسف أن نقرر وجود «هشاشة وتبعية عربية لا مبرر لها فى

مجال الأدب والثقافة والفن، مما يجعلنا على قارعة الطريق بلا مأوى حضارى أو فكرى، تتنازعنا سباقات الترجمة حينًا، أو التسابق بالوقوف على أطلال أو أثافى الآخرين، مع قليل من أحلام وردية فى مجد أثيل، دون أن نعد للأمر عدته. هذا يعنى أن مهمة صعبة تلحق بالمبدع العربى، الذى يجسر على تأسيس نظرية جديدة للأدب المقارن يتجاوز فيها محاذير الطريق وغلواء البحث» (المصدر نفسه: ۱۰۱).

وفى ضوء هذه التصورات التى تقدمت، يمكن الوقوف عند بعض الدراسات العربية التى حاولت التنظير للأدب المقارن ـ كما زعم المؤلف ـ منها كتاب للدكتور أحمد عبد العزيز[۱] بعنوان: *نحو نظرية جديدة للأدب المقارن*، و الكتاب ـ كما تقدم ـ مجموعة من الأبحاث التى نشرها المؤلف فى المجلات و ملتقيات الأدب المقارن المحلية والأجنبية وهو يقع ـ كما سبق ـ فى مجلدين، يتناول فى المجلد الأول البحث عن النظرية، و فى المجلد الثانى استراتيجيات المقارنة، و الكتاب من أحدث الكتب العربية التى طرحت وبجرأة منقطعة النظير تنظيراً عربيًا للأدب المقارن، و ها نحن نتناول الكتاب كاملا، فنعدّ ما له وما عليه، بعد قرائته قراءة متعمقة، نتعرف من خلالها على أطره المرجعية ومقارباته النقدية. وقد أبدى المؤلف جسارة فائقة حين طرح هذا العنوان التنظيرى: *نحو نظرية جديدة للأدب المقارن*: «ساورتنا أحلام حوّلناها ـ أو جانبًا منها ـ إلى واقع. كانت أفكارًا فى رحم الغيب تراودنا عن أنفسنا، وكان لا بد من الجسارة حتى لا تفلت من أيدينا، وفاز باللذة الجسور» (عبدالعزيز، ۲۰۰۲: ۳۴۷/۱).

وقبل تقويمنا لمحتوى الكتاب ينبغى الإشارة مرة أخرى إلى شجاعة المؤلف وجسارته للولوج إلى عالم التنظير للأدب المقارن واتخاذه ذلک عنوانا لكتابه. صحيح أن محاولته للوصول إلى نظرية جديدة و تطبيقاتها فى الأدب المقارن ليست جديدة ولا ناجحة تماما، ولكنه بذل كل ما بوسعه وتكفيه كما يقول «لذة المحاولة، و متعة خوض التجربة» (المصدر نفسه: ۷/۲).

يفتتح الدكتور أحمد عبد العزيز مقدمة كتابه بتوطئة بينت أبعاد أزمة التنظير للأدب المقارن ودروب حلها، مشيراً إلى تاريخية الأزمة، وذلک من خلال تعرضه لذكر مبحث لرينيه ويليک المعنون: أزمة الأدب المقارن فى كتابه *مفاهيم نقدية* (الصادر عام ۱۹۶۳)؛ وبشىء من الإلحاح واليقينية يبين الدكتور عبد العزيز عمق هذه الأزمة بقوله: «أزمة، وأزمة، ومعضلة، ومشكلة، وإشكالية، ومأزق، ولا مخرج. وأينما وجهت وجهک فى شتى سبل الدراسة تجد الأزمة محدقة بالبحث المقارن، وكأنما كتب علينا أن نظل فى كهف مظلم ريثما يجود علينا الآخرون فيه بشمعة تضىء لنا الدروب» (المصدر نفسه: ۷/۱) وقد انتشر مثل هذه المبررات والمسوغات انتشاراً واسعاً بين الباحثين والدارسين، والحقيقة أن فى مثل هذه التصريحات من المبالغة والغلو المرذول والابتعاد عن الموضوعية العلمية ما لا يخفى.

و فی معرض حدیثه عن معوقات ظهور نظریة عربیة للأدب المقارن یقول الدکتور سعید علوش: «وینبنی تحفظنا علی استعمال تسمیة المدرسة العربیة، من کون تلک المدرسة لم تستطع الاستقلال بذاتیتها نهائیًا، بل یستغرقها وهم الترویج والدعایة، کما لو کان درسًا غریباً یجب الدعوة إلی تبنیه عربیاً، قبل ارتباطه باللون القومی العربی... کما یعوق خروج المدرسة العربیة، خوضها فی دوامة البحث عن الأدب الشرعی للدرس، وانقطاع أبحاث المقارنین العرب عن تواصلها أو تجاهل المعاصرین: الواحد للأخر، والأجیال للأخری، الشیء الذی یبقی الدرس المقارن فی العالم العربی عند نقطة البدء والانطلاق، أی الالتصاق بالتعریف، بما یفترض جهله بالحقل الثقافی العربی» (علوش، ١٩٨٧: ١٥٩).

وقد تکون هذه هی العلة الاعتباریة الأولی التی دفعت الدکتور عبد العزیز لهذه الدراسة، کما زعم: « لهذا فإنه لا بد للأدب المقارن ـ لکی یخرج من الطریق المسدود الذی وضعته فیه المدرسة الفرنسیة عن عمد، والذی حاولت المدرسة الأمریکیة أن تفتحه سیراً علی نفس الدرب ـ لا بد له من ثورة شاملة یجدد فیها نفسه، ویساير رکب التطور العلمی الهائل، ولا یبقی أسیر خلافات صغیرة حول التسمیة و أن یترک خلافات المجد حول أول من دعا إلی الأدب المقارن فی هذا البلد أو ذاک، و لمن المجد الیوم...، و أن یهجر دونما رجعة ... سبل التاریخ المکرر الذی نراه فی کل کتاب من تلک التی تحمل عنوان الأدب المقارن... . لقد آن له أن یرفض هذه الدروب الضیقة والأزقة العتیقة المتهاویة لیطور نفسه مع خطاب العصر ... ویشارک بلبنة العالمیة فی الخطاب الأدبی؛ حتی لا یحکم علی نفسه بالموت؛ آن له أن یترک الشائع المبتذل Topiques و ینتقل إلی التارکیز علی النص فی إطاره العالمی... ولا خشیة علیه فی هذه المخاطرة بفقدان ذاته، فهو إنما یستبدل ثوباً قشیباً بثوب قدیم، ویستبدل بوضعیة فرنسیة من القرن الماضی، وأخری أمریکیة من القرن الحالی بنیة متحرکة للخطاب المقارن، ولا خوف علیه؛ لأن طبیعته العالمیة تقف علامة فارقة بینه وبین غیره من الخطابات» (عبدالعزیز: ١/ ٧-٨).

إن القارئ لهذه اللغة الإلحاحیة والسلبیة، ذات النبرة الانفعالیة العالیة یخیل إلیه أن المؤلف سیقدّم فی کتابه هذا نظریة جدیدة للأدب المقارن، لها أبعادها وأسسها البدیلة للنظریات الأخری، وهی حلم وأمنیة بذل الدکتور عبد العزیز کل ما فی وسعه لتحقیقه، ولکن هل تمکّن هو فعلا من ذلک؟ هذا ما سنجیب عنه فی هذه الدراسة إن شاء الله.

ومن الصفحة الثانیة لتوطئة الکتاب یحدد الأستاذ عبدالعزیز خطته و مشروعه الذی یرید تقدیمه للدرس الأدبی المقارن بقوله: «والمشروع الذی أقدّمه الیوم یعرض مقترحات فی هذا الصدد، لعلها تکون ذات فائدة فی إرساء دعائم نظریة جدیدة للأدب المقارن. و لما کان هذا المشروع یطمح إلی خلخلة کل الأفکار القدیمة فی الأدب المقارن، والتی أوصلته إلی هذا الدرب

المغلق ـ درب الأزمة التی یشار إلیها فی کل حین، علی اختلاف مشاربها ـ فقد رأینا من الصعوبة بمکان عرض جمیع الأفکار الجدیدة دون تعمیقها، و کان لا بد ـ إذن ـ أن نتناول کلا منها علی حدة» (المصدر نفسه: ۸/۱).

ودون أن نتوخی استباق الحکم فی ما نقصد أن نحکم علیه نقول: إن تحقیق مثل هذا الحلم و الأمنیة الحلوة یتعدی طاقة باحث واحد، بل و مجموعة من البحاثین المتخصصین! فلیس بإمکاننا أن نتوصل إلی دراسات فوق قومیة و أن نتمکن من تقدیم الآراء و النظریات الجدیدة دون اللجوء إلی عمل الزمرة (مع استثناءات نادرة).

و أشرنا ـ فی ما سبق ـ إلی أن المؤلف ینوی تقدیم مشروع یعرض مقترحات ذات فائدة فی إرساء دعائم نظریة جدیدة للأدب المقارن (انظر: المصدر نفسه: ۸/۱) ولکننا نلاحظ أنه یکرر ما سبقه إلیه المنظرون الغربیون ببضعة عقود. فهو مثلا یستخدم مصطلح «جامع النص» الذی استعمله الناقد الفرنسی الکبیر جیرار جینیت فی کتابه بعنوان: مدخل لجامع النص (ترجمة عبد الرحمن أیوب، دار توبقال، ۱۹۸۶) و قد أشار الدکتور عبد العزیز إلیه فی هوامش کتابه، بل بدا منبهراً به، و راجعه مرارا و تکرارا ، مع أن أطره المعرفیة ومرجعیاته الفلسفیة ذات خصوصیة غربیة تختلف بها عن منظومة البنیة النقدیة العربیة.

ویؤخذ علیه أیضا ـ کما أسلفنا ـ إکثاره من حشد العناوین الفرعیة فی الفصل الأول، وهی عناوین غیر قادرة علی إیضاح نفسها دلالیاً، وتعجز المفسرات التالیة لها عن بیان مقاصدها. فمثلا فی عنوانه الفرعی الأول: «شبح الوضعیة ونظریة الأنواع» لا یطرح المؤلف رؤیة منهجیة متکاملة واضحة قابلة للتطبیق وأصیلة غیر منقولة عن الآخرین تکشف عن تصوراته للنظریة الجدیدة للأدب المقارن.

و فی معرض حدیثه البالغ الإیجاز عن شبح الوضعیة و نظریة الأنواع یقول: «ولسنا، ولیس رینیه ویلیک، أول من وقف من هذه النظریة هذا الموقف» (عبدالعزیز، ۲۵/۱). ولایدری المرء ما هو دور المؤلف و فضله فی إهمال نظریة الأجناس الأدبیة؟! فنظریة الأجناس ـ کما زعم ـ عفی علیها الزمن و صارت موضع کراهیة وازدراء من نقاد العصر الحالی، و إذا کان هناک من فضل فهو یرجع إلی الرواد الغربیین فی هذا المجال.

وینتقل الدکتور عبد العزیز إلی العنوان الفرعی الثانی: «وضعیة المقارنین الأوائل وجدوی نظریة برونتییر» ولسنا بصدد التعلیق علی کل عنوان من عناوین الکتاب الفرعیة، ولکننا ما إن نبدأ فی قراءة السطر الأول حتی نفاجأ بالحدیث عن دعوة الفرنسی برونتییر إلی تطبیق نظریة داروین فی النشوء والارتقاء علی الأدب؛ ثم یعقب الدکتور عبدالعزیز علی هذا الحدیث بقوله: «وإنما یأتی إحساسنا بفداحة خطأ نظریته فی هیمنتها علی النصوص، وفرض معاییر من خارج الخطاب الأدبی

لا من داخله، كالعلاقات التاريخية بين هذه الأنواع، وتوالدها بعضها من بعض، كتوالد الأنواع الحيوانية، وإصدار أحكام تفضيلية بين الأنواع الأدبية، بالإضافة إلى القوانين العلمية التى تتحكم فى هذه الأنواع من الميلاد حتى الموت والاندثار» (المصدر نفسه: ۲۶/۱– ۲۷).

والحقيقة أن مثل هذا الشعور والإحساس أيضا قديم عفى عليه الزمن، و ليس مما راود الدكتور عبدالعزيز دون غيره!

يضاف إلى ذلک أن أىّ نظرية لاتخلو من مواطن ضعف، و أن الإنسان لايستطيع إلا أن يقدر الظروف التاريخية لنشأة النظريات المختلفة. فكان من الأفضل أن يبين المؤلف مكاسب نظرية دارون و تطبيقها على الأدب و ما أنتجته من مشكلات و مآخذ.

و لعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن الدكتور عبد العزيز لا يرغب إلا فى إعادة بعض القضايا التاريخية البحتة، أكثر من اهتمامه بتأصيل نظريته فى الأدب المقارن؛ فهو مثلا يتحدث عن النظرية الثلاثية للأنواع، وخطأ نسبتها إلى أرسطو ـ بعد أن أكد جيرار جينيت عدم انتماء هذا التقسيم الثلاثى إليه ـ و يذكر آراء الناقدين فى هذا المجال، دون أن يذكر شيئا له فى هذا المضمار.

وتبدو المداخل الأولية للنظرية المفترضة فى حديثه المعنون: نحو شعرية مقارنة لجامع النص (المصدر نفسه: ۳۰/۱ و ما بعده). وهذا العنوان ببنيته التركيبية لا يتجاوز تعريف الشعرية وتحليلها عند طودورف فى كتابه الشهير عن الشعرية، كما يبدى المؤلف إعجابه بإنجازات رولان بارت فى تفرقته بين العمل والنص (فى كتابه عن السيميولوجيا). وقد استعرض الدكتور عبد العزيز هذه الفروق دون أن يوظفها فى تحقيق نظريته المتوخاة.

والملاحظ أن مصطلح «جامع النص» يبقى الأساس المهيمن فى مشروع نظريته المبتغاة، وموجهاً لحركيتها، لذا نلاحظ استعراضه لمفهومه لدى جينيت، ثم يحيل لدعوة ياكوبسون «إلى ربط الدراسة اللسانية للوظيفة الشعرية بخصائص الأنواع الأدبية والبحث عن مساهمة الوظائف اللفظية الأخرى إلى جانب الوظيفة الشعرية المهيمنة» (المصدر نفسه: ۴۵/۱).

ويعترف كاتب هذه السطور بأنه قد عجز عن فهم ربط هذه الدعوة عند المؤلف بالمورفولوجيا اللغوية، و يكاد يقول باطمئنان إن كثيرا من المتلقين يشاركونه الرأى. والطريف فى الأمر أن المؤلف لم يقف عند هذا الحد، ولكنه تحدث بخطاب فلسفى لغوى عن «الربط الزمنى عند هوجو فى دراسته للأنواع دراسة سينكرونية تزامنية و أنثروبولوجية» (المصدر نفسه: ۴۷/۱)؛ ثم يقدم جدولا لربط الأنواع بالزمن الهايدجرى، و ينقل و يستطرد، دون أى تعليق و إيضاح! و دون أن يبين أى معلم من معالم نظريته.

ولعلنا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن «أية مراجعة لمقترحاته الجديدة لمقارنة النوع نجدها تحمل فی تضاعيفها قسطاً وافراً من مغاليق ترسبات التفكيكية، غير المتجانسة، مما يجعل من اقتراح انتظامها، نزوعاً إجبارياً نحو الآخر، فأسقط أصالة الرؤية ومؤدياتها لتجاوز المقروء الأجنبی، وكان الأصل أن يعمل على تأسيس مهاد تنظيری أكثر قدرة من هذا ليتجاوز استعلاء واستعارة المصطلحات والفرضيات والمفاهيم التی أفرزتها الحياة الغربية» (أبو دقة، ۲۰۰۸: ۱۰۵).

فعلی سبيل المثال ـ لا الحصر ـ حين يقترح المؤلف تحديد المجال لمقترحات جديدة للمقارنة، يبدأ بالمجال الأول وهو النص/النوع، جاعلاً إياه مقترناً بقرائن مبهمة منقولة من آراء الآخرين ليقنعنا بمتانة الأصل ويبرز اختلافه اليسير معه: «فنحن ننطلق من النص إلى النوع، أو إلى جامع النص، إذ هو الهدف فی دراسة جديدة للأنواع، وهو ما يطلق عليه جيرار جينيت: التعالی النصی» أو بحرفية الترجمة «العبور النصی»... علی أننا لا نتفق معه فی إدخال التناص، أو ما ترجمه المترجم بالتداخل النصی (Intertextualite) فی مفهوم التعالی النصی، أو العبور النصی؛ لأن هذا التعالی النصی يعبر بنا من النص إلى جامع النص، بينما ندخر مفهوم التناص النقدی لنعبر به من النقد إلى الأدب المقارن» (عبدالعزيز، ۲۰۰۲: ۱/۶۰).

ومن نافلة القول أن نذّكر القارئ الكريم بأن ثمة هوة عميقة بين الواقع العربی والغربی، يجب ألا ننساها؛ و«هذا كله أمر طبيعی، لأن أی دراسة أدبية تنشأ فی بيئة معينة تحمل فی مظهرها وطياتها سمات تلك البيئة» (ندا، ۱۹۷۵: ۵).

واستنادا لهذه الآلية فی الاستدلال والاختلاف يصل الدكتور عبدالعزيز إلى خطواته الإجرائية كخلاصة لبحثه، «وكأنها مسلمات منطقية، انتظمت سياقاتها، ومقدماتها، ونقاشاتها، وعرضها، فأفضت لنتائج واضحة المعالم، آمنة مطمئنة، ولم يبق أمامنا سوى التسليم بها، بإدخالها فی عين اليقين. وأخشی أن العكس قد حدث تماماً، بعيداً عن التعمية أو الالتواء أو الإلغاز» (أبو دقة، ۲۰۰۸: ۱۰۶). انظر إليه وهو يقدم فی حماسة بالغة بعض خطواته الإجرائية:

«يمكن لمفهوم التناص أن يكون أول خطوة إجرائية تصبح أساساً من أسس الأدب المقارن، علی أن هذا الأساس فی البناء الجديد وإن كان يلغی الأصالة فی العمل الأدبی: «النص» ويفتح الباب علی مصراعيه أمام الاقتباسات والتعددية... فإنه ـ علی العكس ـ يذكی روح المقارنة ولا يلغيها، بل يمكن استخدامه لدفع الأدب المقارن الجديد فی مجالات جديدة. ولتكن لعبة المقارنة لعباً عادياً وأداء لدور مسرحی، وعزفاً موسيقياً. ولنستخدم التناص ـ ونحن بصدد جامع النص ـ لتحديد الخطابات والصيغ والأنواع فی تمازجها وتناقلها وتكونها وتجددها» (عبدالعزيز، ۲۰۰۲: ۶۳).

والدارس المتخصص يعلم جيدا أن عملية التناص من الركائز الأساسية و مجال خصب فـي الدرس المقارن، القائم على أساس من التثاقف والتأثر والتأثير، لدرجة أنها تحل بالتـدريج محـل دراسات التأثير والتأثر. فالتناص ليس جديدا كل الجدة، ولا اكتشافاً يُسجّل للدكتور عبد العزيـز حتى يجعله خطوته الإجرائية الأولى.

ثم كيف تفترض أن التناص يلغى الأصالة فى العمل الأدبى؟ وكيف يمكن لأى نص أن يقـوم بلا تناص؟ كيف يمكن أن نفهم عبارة المؤلف: «ولـتكن لعبـة المقارنـة لعبـاً عاديـاً وأداء لـدور مسرحى، وعزفاً موسيقياً؟!» و كيف نلتمس دور التناص «لتحديد الخطابات والصيغ والأنواع فى تمازجها وتناقلها وتكونها وتجددها»؟!

هذه أسئلة لم يقدم الدكتور عبدالعزيز جواباً عنها.

وإذا تابعنا الملامح العامة للخطوات الإجرائية الأخرى، أفضت بنا إلى النتيجة نفسها؛ ففى الخطوة الإجرائية الثانية يرى أن استخدام فكرة تحطيم النص لذاته ـ لمعرفة ما يتخلق عن رفات النص القديم ـ تكون ذات فائدة كبيرة كى نتمكن من معرفة الأنواع التى ماتت فى مكان، وانتقلت إلى مكان آخر (راجع: عبدالعزيز، ٦٣/١).

والحقيقة أن فكرة تحطيم النص لذاته التى أوردها رولان بارت لا تتعدى كونها تنظيراً إلى نظرية ذات أنساق معرفية خاصة قابلة للتطبيق.

وفى معرض كلامه على «النص الشبكة أو النوع الشبكة، أو جامع النص الشبكة» يبتعد المؤلف أكثر فأكثر عن الوضوح والشفافية؛ فمن الحق أن يقال: إن مصطلحات كهذه لم تشقّ طريقها بعد إلى الخطاب النقدى العربى بصورة واضحة لا لبس فيها. نعم، هناك حاجة ماسة لتبيئة المصطلحات النقدية كى تتحمل دلالات عرفية محلية، ولكن ذلك فى حاجة إلى توافق تام أو شبه تام من قبل العلماء و اللغويين.

من هنا يمكن القول مع الدكتور أبو دقة إن تتبع مناقشة بقية الإجراءات المقترحة، سيفضى بنـا إلى النتيجة نفسها؛ مما يجعل من الاستمرار فى طرحها تعدياً على حق المتلقى فى استجلاء صـور الاشتباك الإنشائى بين ما هو شكلى وبين ما هو دلالى، وبين ما هو إجراء وبين ما هو مصـطلح، وبين ما هو تنظير وبين ما هو تطبيق، وكأنها ملفوظات وثنائيات وصيغ وضعت كيفما اتفق، دون أن يكون لمنطق التأسيس الواعى والمتراكب التدريجى قرائنه الحافظة له» (أبو دقة، ٢٠٠٣: ١٠٨).

ويقترح الدكتور عبد العزيز فى نهاية الفصل الأول (المصدر نفسـه: ٦٦/١) نظريتـه الجديـدة للأنواع!! وهى إجراءات تَدين للآخر الغربى فى عمق أطرها المرجعية وتمثّل الكثير من خطواته؛ فلا جديد فى نظريته هذه، كقوله باعتماد مفهوم جامع النص (Architext) كبديل للنـوع، واعتمـاد

تقسیمیة جدیدة للأنواع تفتح الدائرة أمام أنواع جدیدة، و اعتبار التحولیة أساسا من أهم أسس جامع النص المقارن، و تحویل لذة النوع إلی لذة معرفیة موضوعیة تدرس التناص و... .

و هذا یذکّرنا بما سبق أن قاله الدکتور عبدة عبود عن الأدب المقارن العربی: «من الملاحظ أن الدراسات الأدبیة المقارنة قد شهدت إبان الأعوام العشرة الأخیرة رکودا شدیدا علی الصعیدین الإنتاجی و التنظیمی. فمن الناحیة الإنتاجیة لم یحقق الأدب المقارن العربی بعد مرحلة الاندفاع التی عاشها فی أوائل الثمانینیات و أواسطها النقلة النوعیة المرتقبة، لا نظریا و لا تطبیقیا، و قد اقتصر ما أنجزه المقارنون العرب علی إعادة إصدار کتبهم القدیمة فی طبعات موسّعة و بعناوین جدیدة، و علی تألیف أبحاث صدرت فی هذه الدوریة أو تلک، و علی ترجمة المؤلفات النظریة التی یفترض أن تکون قد ترجمت إلی العربیة قبل وقت طویل. أما علی الصعید التنظیمی فقد استمرت أزمة الرابطة العربیة للأدب المقارن، تلک الأزمة المتمثلة فی ربط الأمانة العامة بالمقر الدائم، و فی عجزها عن أن توفق بین طابعها القومی و بین الواقع القطریّ للعالم العربی» (عبود، ۱۹۹۹: ۶۵)

و دون أن نحاول التقلیل من مجهود الدکتور عبدالعزیز نری لزاما علینا أن نشیر إلی أن محاولات الدکتور حسام الخطیب الجادة فی دراساته المقارنة ومحاولات نظیره الفلسطینی عزالدین المناصرة هی أشدّ تمثیلا لتجاوز الدرس العربی المقارن لواقعه الراهن.

أما الکتاب الثانی فقد جمع المؤلف فیه بین النظر والتطبیق مع غلبة الجانب الثانی؛ صدّره بتوطئة تحدّث فیها عن منهجه المتّبع بقوله: «کان الهدف إذن أن نتجاوز أنفسنا، وألا نقف بالمقارنة عند مفهوم واحد لاتتعداه، بمعنی أن نستفید من منهجیة المدرسة الفرنسیة، دون أن نحبس أنفسنا بین جدرانها وأسوارها الحدیدیة، ونداعب المدرسة الأمریکیة دون أن نصبح أسری أفکارها وتطبیقاتها...» (عبدالعزیز، ۲۰۰۲: ۵/۲).

أین إذاً نظریته التی یتحدث عنها فی حماس بالغ؟!! لأن المستفاد مما تقدم هو تراوح المؤلف بین المنهجین السائدین فی الدرس المقارن.

ویعقّب المؤلف علی ذلک بقوله: «لقد کان هدفی آنئذ أن أقدم کتابا یجدد قدر المستطاع الفکر المقارن نظرا وتطبیقا، و یختطّ لنفسه خطة فی جغرافیا الدرس النقدی المقارن، سائرا علی الدرب تارة، ومحاولا التجاوز تارات، فکان أن تولدت هذه المجموعة من المباحث التی حاولت الوصول إلی تصور عام جدید للأدب المقارن» (المصدر نفسه: ۵/۲).

و فی ختام التوطئة یشدد المؤلف علی محاولته للوصول إلی نظریة جدیدة وتطبیقاتها فی الأدب المقارن بقوله:«فإن تم لنا بعض ذلک فإن هذا سیعنی استمرار تدفق الدم فی شرایین هذا

العلم الجديد، وهو ما يعنى تحطم النبوءات اليائسة التى أطلقها البعض حول موت الأدب المقارن؛ و إن لم يكن ذلک فتكفينا لذة المحاولة، و متعة خوض التجربة» (المصدر نفسه: ۲/۶–۷).

و هنا يبدو أن المؤلف بدأ يتراجع شيئا فشيئا عما ادعاه فى مقدمة كتابه، و آمن بصعوبة أو استحالة ما نادى به. والمتتبع للكتاب الثانى يدرک هذا بسهولة و فى وضوح تامّ. فالفصل الأول للكتاب خصصه للحديث عن طه حسين و استراتيجية المقارنة عنده، وهذا الفصل يقع فى أربعين صفحة، ليصل إلى ما وصله فى بداية بحثه: المقارنات غير القصدية عند طه حسين وعدم وعيه بالأدب المقارن العلمى (انظر: المصدر نفسه: ۱۲/۲).

وهنا نتساءل المؤلف الكريم: أ هناک من ينكر وجود مقارنات غير قصدية فى الآداب المختلفة سبقت الأدب العلمى المقارن بقرون؟! والعجيب فى دراسة الدكتور عبدالعزيز هو أنه لم ينتبه إلى محاولة المقارنين العربيين الشهيرين حسام الخطيب و عزالدين المناصرة عندما أرجعا الفضل فى ظهور المقارنة التطبيقية المنهجية فى الأدب العربى إلى روحى الخالدى، و الدكتور الخطيب هذا قد أرجع الفضلَ فى مجال المصطلح إلى خليل هنداوى (انظر: الخطيب، ۱۹۹۹: ۱۹۶ وما بعده). و قد ترتب على هذه الغفلة أو التجاهل مقولة الدكتور عبدالعزيز الخاطئة عن ريادة فخرى أبوالسعود فى الدرس التطبيقى المقارن فى الوطن العربى: «وهكذا سار طه حسين بهذه المقارنات والانطباعات فى عشرينيات هذا القرن قبل أن تظهر المقارنة عند فخرى أبوالسعود فى منتصف العقد التالى له، أعنى منتصف الثلاثينات» (عبدالعزيز، ۲۰۰۲: ۲۴/۲).

والفصل الثانى للكتاب خصصه لتحولات النوع الأدبى، درس فيه انتقال شخصية «السيد القمبيطور» من التاريخ إلى الأسطورة والأدب؛ و فى هذا الفصل يدرس المؤلف ملحمة السيد باعتبارها أول أثر أدبى إسبانى معروف ويدرس مختلف الأشكال الأدبية التى تقمّصتها شخصية السيد من سيرة و رحلة و مسرح و سينما.

ودراسة التيمات أو الموضوعات و دخولها إلى عالم السينما والمسرح ليست جديدة؛ فقد سبقه إليها الكثيرون فى الغرب والشرق! فليس فى المجال التطبيقى فضل يُذكر للمؤلف.

وأما القسم الثانى من هذا الفصل فقد خصصه للحديث عن تحولات المنهج بين العلم والفن ليكشف عن شعرية البحث عند الدكتور يوسف خليف، و هو بحث شائق و طريف، ذكر المؤلف فيه أن خليف كان يدعو إلى «القراءة المجردة التى تهدف إلى تكوين رأى خاص دون التأثر بأحد وتعتمد التأمل والتفكير منهجاً...» (المصدر نفسه: ۸۴/۲).

وفى مقارنة أجراها المؤلف بين منهجه و المناهج الأخرى يجد أن الدكتور خليف يرفض التاريخانية (Historicisme) أساساً لتقسيم الأدب إلى عصور، ويرفض إخضاع الظاهرة الأدبية

للحدث السياسی و يركز على وحدة الظاهرة الفنية أيا كانت العصور السياسية و أيا كانت التغيرات بين الحكام والنظم السياسية (انظر: المصدر نفسه: ۲/ ۸۵-۸۶) و لا شک أن فكرة «التعصير» (=التقسيم إلى عصور) و«التحقيب» (=التقسيم إلى حقب أو مراحل) فكرة أساسية فی الأدب المقارن. وللولوج إلى عالم الدكتور خليف يقرر المؤلف أن «المزج أو هذه المزاوجة بين الثنائية: العلمية/ الأدبية أو بمعنى أصح ـ الأدبية/العلمية هو المفتاح الحقيقی لعالم الدكتور يوسف خليف» (المصدر نفسه: ۹۵/۲).

والفصل الثالث ينقلنا إلى «قراءة الشكل»، حيث يوجد المؤلف والقارئ فی النص باعتبارهما استراتيجيتين نصيتين. وبهذا المعنى يتتبع الأشكال العربية والأندلسية والإسلامية عند الشاعر الإسبانی خيسوس ريوساليدو؛ و يقصد بالأشكال، الزجل والقصيدة والقصيدة الصوفية والموشحات والمقامات والمقامات الصوفية والشكل القرآنی.

و يدرس المؤلف فی القسم الثانی من هذا الفصل أشكالا مضمونية فی الفضاء الأندلسی تمثلت فی رباعيات فيليكس جراندی، و يتحدث فی إيجاز جد بالغ عن رباعيات الخيام فی الفارسية و يرى أن رباعيات جراندی «تتحرر كثيرا من الشكل الرباعی فی قوافيه و فی عدد شطراته أو أبياته، لكن المضمون فيها يظل مضمونا جسديا، و كأنه ارتكز على هذا الجانب وحده من جوانب الخيام» (المصدر نفسه: ۱۵۴/۲).

وفی إطار هذه الأشكال المضمونية يتتبع التأريخ الشعری المخترع فی «ديوان بنی رزين» لخيمينيث لوسانتوس و فی «السيرة الذاتية» فی ديوان الأندلسيين، و يختم هذا الفصل بصلاة الجنازة على الأندلس لألفونسو كاناليس.

ويدور الفصل الرابع حول الموضوعات العربية فی الشعر الأندلسی المعاصر: فی أدب فيرناندو كينيونيس، و أنخيل غارثيا لوبيث و أنطونيو إيرناندیث و... ليؤكد أن حضور الموضوعات العربية فی الأدب الإسبانی بصفة عامة أمر لا شک فيه.

أما الفصل الخامس فقد خصصه لقراءة التاريخ للفن و فی الجزء الأول منه تحدث عن صورة الأندلس فی عالم أنطونيو جالا التلفزيونی (المتمثل فی سلسلة بعنوان: مناظر وشخصيات) و الروائی. و تحدث فی الجزء الثانی عن مأساة الحامّة، و يبدأ بتحديد المصطلح فی اللغتين العربية و الإسبانية لينتهی بأنه الحامّة أو الحمّة لما له من صلة بالحمّامات الساخنة التی اشتهرت بها المدينة، ثم يستعرض كارثة الحامة وفق المصادر التاريخية من عربية و إسبانية؛ و يأتی القسم الثانی من البحث ليتناول السيناريو السينمائی الذی كتبه بدرو كوبوس عن هذه المدينة و مأساتها.

أما الفصل الأخير فی هذا الكتاب فيدور حول الصور و الأساطير و الرحالة. و فـی هـذا القسـم يقول: «و إذا كانت الصورة الصادقة تقع فی قلب الدرس المقارن الفرنسی (المدرسة التاريخية) فـإن الصورة الكاذبة أو الزائفة أو المخترعة تقع فی صميم المقارنة المعاصرة باعتبارها نوعا مـن القـراءة» (المصدر نفسه: ۲/ ۲۳۱).

و الأصوب هو أن يقول: إن دراسة الصورة صادقةً كانت أم كاذبةً تدخل فی مجال الأدب المقارن. فها هو غويار ـ من روّاد علم الصورة فی الأدب المقارن الفرنسی ـ يقول: «كل فرد، وكل مجتمع، بل كل بلد يختصر النظرة إلى البلد الآخر، حيث لا يبقى إلا مجرد خطوط كبرى لمّاحة، فليس ثمة ألمانيا، بل ألمانيا ميشليه، و ألمانيا الفلاسفة و ألمانيا الفرنسيين؛ و كلما اتسعت الجماعة ازداد إمكان اختصار الخطوط المكونة عن البلد الآخر، و صارت النظرة كاريكاتورية لافتة» (غويار، ۱۹۸۸: ۱۲۵–۱۲۶) ثم يضيف: «تحليل الأوهام والهالات الأجنبية فی فرنسا بدأ ضعيفا و كذلک تحليل تأثير فرنسا فی الخارج...» (المصدر نفسه: ۱۳۵)، و لهذا يعتبرون الصورة سرابا و يعتبرون علم الصورة دراسة للأوهام حول الآخر (نانكت، ۱۳۹۰: ۱۰۷؛ حنون، ۱۹۸۶: ۶۳).

قدم الدكتور عبدالعزيز فی القسم الأول من هذا الفصل تحليلا مستفيضا عن «أسطورية لوركا عند العرب» و يعرض لفكره السياسی المناهض للفاشية الذی جعل من لوركا رمزا للشهداء و المناضلين الثوريين، و يشير إلى عروبة لوركا و غجريته، و موته المأساوی، و يتناول دور الوسطاء و المترجمين والدراسات التی ظهرت حوله، و يعرض كذلک لإقبال المسرح و السينما العربيين عليه، الأمر الذی وسّع من قاعدته الشعبية، و أدت إلى خلق دراسات كثيرة حوله عند العرب.

و يعرض فی القسم الثانی لصورة المنيا عند الرحالة الإسبانی المعاصر تيرينثی مويكس، أی إنه يدخل فی مضمار علم الصورة أو الصورولوجيا. والصورة تمتلئ بالأوهام والأحلام، لكنها تصطدم بصخرة الواقع.

والقارئ للكتاب الثانی يلاحظ تنوعا فی مجال التطبيق لايمكن إنكاره؛ و نحن هنا لا نقيمّ، (إذ إن أكثر التطبيقات ترتبط بمحور الدراسات العربية ـ الإسبانية)، بل نؤكد التقدير العالی للمجهود المبذول فی هذا الكتاب، و لكن نری أنه كان بالأحری أن يتناول المؤلف فی هذا الكتاب، نفسَ المواضيع النظرية التی عالجها فی الكتاب الأول. و من هذه المواضيع: الترجمة، و نظرية التلقی، و لا نجد لهما حضورا فی هذا الكتاب. إذن يمكن القول: إن القضايا النظرية تدور فی فلک، و الموضوعات التطبيقية تدور فی فلک آخر فی الأغلب الأعم.

والملاحظة الأخری فی هذا المجال هی أن معظم المواضيع التطبيقية يدخل فی باب التأثير والتأثر، و يكشف عن سيطرة التأثيرات على الدرس الأدبی المقارن فی الوطن العربی عامة، و

على فكرة المؤلف. فهل يمكن القول إنه قد أتى بنظرية جديدة فى الأدب المقارن؟!! هل هذا هو ذاک الأدب المقارن الجديد الذى ظل المؤلف ينادى به فى لغة حماسية منذ سنين؟! و يحق للمرء أن يسأل: هل هذا الجديد فى المقارنة واستراتيجية المؤلف يجب ان يبتدئ بـ «مقارنات طه حسين غير القصدية» و يواصل طريقه نحو دراسات تطبيقية مطروقة و معروفة منذ عقود؟! لماذا يتجاهل المؤلف جهود من سبقه من المقارنين العرب[۲] فى هذا المضمار و لا يشير إلى دورهم الريادى، لا من قريب و لا من بعيد؟! كيف يمكن صياغة نظرية جديدة دون الحديث عن الرواد و الإشادة بدورهم و محاولاتهم؟! ثم أى جديد فى الأدب المقارن الذى تفرد به الدكتور عبدالعزيز ومازال ينادى به و يتحمس له؟!

إن أحدا من رواد المقارنة العربية و أعلامها لم يزعم أنه بدأ ينادى بنظرية جديدة للأدب المقارن، و عندنا أن الدكتور عبدالعزيز لو تخفف من حماسته البالغة للتنظير و مارس وجوده كناقد منصف لأجاب بنفسه على دعاويه فى إرساء دعائم نظرية جديدة للأدب المقارن.

۴. النتائج

من خلال تسليط الضوء على كتاب الدكتور أحمد عبدالعزيز فى التنظير للأدب المقـارن، يمكـن للمرء أن ينتهى إلى استخلاص النقاط التالية:

۱. إن مسيرة الأدب المقارن فى العالم العربى تتطور اليوم تطوراً ملحوظاً، سواءٌ من ناحية تزايد عدد المتخصصين، أو من ناحية تعدد اتجاهاتهم أو بحثهم عن هوية خاصة للأدب العربى المقارن لا تعانى من التبعية للغرب باتجاهاته و مدارسه. و بالنتيجة نلاحظ أن نوعا من الاستقلال أخذ يظهر فى الأعوام الأخيرة من القرن العشرين و ما بعده فى مؤلفات عدد من المقارنين العرب، و على رأس هؤلاء: حسام الخطيب وعزالدين المناصرة و سعيد علوش و عبدالنبى اصطيف و... . إذن يمكن القول: إن رصيد المقارنة العربية بلغ مقدارا يستحق الدراسة والتحليل، سواء من الناحية الكمية، أو من ناحية الإسهام فى تقديم بعض المقترحات و التنظير.

۲. إن تأسيس أية نظرية جديدة و تأصيلها يعنى أن وعياً مختلفاً بدأ يتشكل، وفق رؤية عميقة و واضحة المعالم تختلف عما هو موجود؛ فلا يتم بناء نظرية جديدة، وفقًا لما يتهيأ أو يتوافر لنا من أقوال الآخرين، ولا من فروض خاصة بهم، دون أن تكون للنظرية الجديدة خصوصيتها وشروطها وعناصرها الخاصة بها. والحقيقة أن مثل هذه الشروط لاتتوافر فى محاولة الدكتور عبدالعزيز ولا فى محاولات غيره من المقارنين العرب إلا فى الندور. فثمة تبعية عربية واضحة للغرب و مكاسبه فى مجال الأدب والثقافة والفن.

٣. إن الدكتور عبدالعزيز يحاول أن يقدم نظرية جديدة للأدب المقارن للنهوض بالدراسات المقارنة، و هو يظهر اطلاعا شبه واسع و فيه جرأة (نظرية على الأقل)، غير أن محاولته الجريئة هذه تتمثل فى تقديم نهج وسط بين المدرسة الفرنسية المحافظة (التقليدية) والمدرسة الأمريكية المتحررة، مع ميل واضح إلى الأولى فى التطبيقات. وإن شئت فقل: إنه فى أكثر من موضع من كتابيه يَعِد بالخروج من إسار المدرسة الفرنسية المحافظة ومجالها الضيق، و يردد ما شاع فى الأوساط المقارنة حول أزمة الأدب المقارن، إلا أنه من الناحية التنفيذية يعود فى الأغلب إلى التركيز على العلاقات الفعلية وآليات التأثر و التأثير. والحقيقة أن هذه الظاهرة تكاد تكون مشتركة فى الفكر المقارنى العربى الحديث، مع استثناءات قليلة.

٤. إن الدكتور عبدالعزيز بدراساته التطبيقية يمثّل محور العلاقات العربية ـ الغربية(الإسبانية)، ولا يُعنَى بمحور الدراسات العربية ـ الشرقية (والإسلامية بوجه خاص) فى شىء.

٥. دون أن نحاول التقليل من مجهود الدكتور عبدالعزيز ينبغى الإشارة إلى أن محاولات الدكتور حسام الخطيب الجادة و عزالدين المناصرة هى الأشدّ تمثيلا لتجاوز الدرس العربى المقارن لواقعه الراهن. فلا نبالغ إذا قلنا إن صدى كتاب الدكتور عبدالعزيز معدوم فى الأدب المقارن العالمى، و شبه معدوم فى الدرس المقارن العربى.

الهوامش

١. أستاذ الأدب المقارن والأندلسى بكلية الآداب فى جامعة القاهرة. له مؤلفات عديدة، منها: الأندلس فى الشعر الإسبانى بعد الحرب الأهلية (١٩٨٩)، قضايا المشرق العربى عند الشعراء الإسبان، المغرب العربى فى الشعر الإسبانى المعاصر، مصر فى المصادر الأندلسية (دراسة فى نفح الطيب)، الحضارة الإسبانية فى مسرح القرن العشرين فى إسبانيا، مصطلحات نقدية، النقش على تمثال عبدالرحمن الداخل (ديوان شعر)، أشواق التحول (ديوان شعر)، الرؤيا (ديوان شعر)، *نحو نظرية جديدة للأدب المقارن* (مجلدان)،و... .

٢. منهم على سبيل المثال الدكتور حسام الخطيب و عزالدين المناصرة، وسعيد علوش، و كمال أبو ديب و...

المصادر

أبو دقة، موسى إبراهيم (٢٠٠٨). «قراءة تحليلية فى مرجعيات التنظير العربى للأدب المقارن»، *مجلة الجامعة الإسلامية* (سلسلة الدراسات الإنسانية)، المجلد السادس عشر، العدد الأول.

پروينى، خليل (١٣٨٩). «نظريه ادبيات تطبيقى اسلامى، گامى مهم در راستاى آسيب‌زدايى از ادبيات تطبيقى»، *مجلهٔ انجمن ايرانى زبان و ادبيات عربى*، العدد الرابع عشر.

حنون، عبدالمجید (۱۹۸۶). *صورة الفرنسی فی الروایة المغربیة*، الجزائر: دیوان المطبوعات الجامعیة.
الخطیب، حسام (۱۹۹۹). *آفاق الأدب المقارن عربیا وعالمیا*، دمشق: دارالفکر.
عبدالعزیز، أحمد (۲۰۰۲). *نحو نظریة جدیدة للأدب المقارن*، القاهرة: مکتبة الأنجلو المصریة.
عبود، عبدة (۱۹۹۹). *الأدب المقارن، مشکلات و آفاق*، دمشق: منشورات اتحاد الکتاب العرب.
علوش، سعید (۱۹۸۷). *مدارس الأدب المقارن*، المرکز الثقافی العربی.
عنانی، محمد زکریا و سعیدة محمد رمضان (۱۹۸۸). *مدخل لدراسة الأدب المقارن*، القاهرة.
غویار، ماریوس فرنسوا (۱۹۸۸). *الأدب المقارن*، ترجمة هنری زغیب، بیروت ـ باریس: منشورات عویدات.
نانکت، لاتیشیا (۱۳۹۰). «تصویرشناسی به منزله خوانش متون نثر معاصر فرانسه و فارسی»، ویژه‌نامهٔ *ادبیات تطبیقی*، فرهنگستان زبان و ادب فارسی، العدد ۱.
ندا، طه (۱۹۷۵). *الأدب المقارن*، ط ۲، بیروت: دار النهضة العربیة.
نظری منظم، هادی (۱۳۸۸). *الدراسات المقارنة بین العربیة والفارسیة علی ضوء المدرسة الفرنسیة*، أطروحة الدکتوراه، طهران: جامعة العلامة الطباطبائی.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی